

الكتابة التاريخية المعاصرة

الباحثة نجاة كريمة عواد

جامعة وهران 2 محمد بن احمد

عالجت المدرسة الألمانية إشكال العلاقة الممكنة بين العلم والتاريخ، وبالضبط ما هي مكانة التاريخ ضمن العلم ولعل المدرسة الأكثر بروزا في هذا المضمار ما أستخدم على تسميته بالمدرسة الكانطية الجديدة التي تشتق غالبا أسلوب تفكيرها من كانط والتي يندرج تحتها كل من دالتاي Diltthey، وريكيرت Rickert وسميل Simmel.

يعد وليام دالتاي (1833 _ 1911) Diltthey من أبرز ممثلها الذين تركوا تأثيرا واسعا في الفلسفة المعاصرة، وقد ترك صدى على أهم الفلاسفة المعاصرين من أمثال هوسرل، وهيدغر وغادامير وبول ريكور وخاصة على ما يعرف عندنا الآن بفلسفة التأويل. يوحى لنا نص دالتاي Diltthey نقد العقل التاريخي* على وجود مسحة كانطية عالج من خلالها وبطرح إبستمولوجي العلاقة بين العلوم التي تخص الإنسان في بعده الأخلاقي والاجتماعي والسياسي وبين العلوم الطبيعية، الشيء الذي دفعه لمعالجة قضايا التاريخ وتاريخ العلوم، خصوصا علوم الأخلاق والسياسة.

لقد خص دالتاي Diltthey مهمته في الدفاع ضد كل توجه علموي يريد أن يفصل بين التاريخ والعلم، ولكن من المفهوم الذي يحمله هو عن معنى العلم، الذي يفرض منذ البداية بأن يكون محصورا في معنى العقل المتعالي، حيث يقول إن "" علاقة علوم الروح بالمعرفة الطبيعية لا يمكنها أن تحل إلا إذ تم فك التعارض بين النظرة المتعالية التي طرحت بها الطبيعية ضمن شروط الوعي والنظرة الإمبريقية الموضوعية التي بفضلها طرحت تطور علوم الروح في إطار شروط العالم الطبيعي. ""¹، ولعل المقصود هنا وتحت هذا الحكم هو البحث عن كيفية لبناء توجه نقدي في حدود الفهم الذي يريده دالتاي .

فكانطية دالتاي لا تظهر كما يقول أرون في "" إستعادة المشكلة : (ما الشروط التي تجعل بالإمكان قيام علم موضوعي للعالم الإنساني). ولا حتى استعادة المسألة، مسألة (أهو ممكن قيام ميتافيزياء وفلسفة للتاريخ؟) بل إنها، بشكل أبسط، لتظهر في التأكيد على الفكر الفلسفي، كي يبلغ الحقيقة، أن يستند إلى يقينه المباشر الوحيد وهو التجربة الداخلية ""² فهي لهذا تبدو نوع من إستبطان العقل لنفسه أي هو نوع من الشعور البرغسوني كما يصفه أرون.

ولغرض تحقيق مثل هذا الطموح حصر مشكلته في الإنسان متسائلا عن الكيفية التي يتمكن من خلالها المؤرخ أن يكون صورة عن الماضي، لذلك وجد في الاستبطان الحل، لأن هذا الأخير "" و التحليل الوصفي للوعي يجدان حدودهما بالضبط في اللاوعي الجمعي ويسمون تحليل تاريخي، أي الدراسة الموازية للروح الموضوعية هذا المصطلح الهيجلي يعني عند دالتاي كل الفضاء الثقافي و التاريخي ""¹.

إن موضوع الفضاء الثقافي والتاريخي ومقاربتهما من خلال المعالجة السيكلوجية للوعي هو ما يحدد مشروع دالتاي لا للتحليل هذين الحقلين بل لغرض دراسة ما يسمي عنده بمسألة الوعي التاريخي من خلال النقد التاريخي.

لذا لما كان من المهام الأولى لمشروع دالتاي صياغة نظرة جديدة على معنى الإنسان، أي الإنسان مفندا كل النظرات السابقة التي عالجت مثل هذه المسألة. فالإنسان "" كواقعة أولية للتاريخ وللمجتمع هو توهم للشرح التكويني، الإنسان الذي تأخذه العلوم التحليلية كموضوع، هو الفرد كجزء مندمج في المجتمع. المشكل العويص الذي عالجه علم النفس هو المعرفة التحليلية للطبائع العامة لهذا الإنسان. بهذه الكيفية علم النفس والأنثروبولوجية يغدوان قاعدة لكل معرفة للحياة التاريخية. ""²

لأشك أن عملية تحليل الطبائع التي يسعى إليها دالتاي هنا، تقوم في جانبها التاريخي خاصة، على إحياء الماضي، وبلوغ هذه السمة، يسعى المؤرخ لعملية الإحياء أي عملية دمج تجاربه الخاصة بتجارب الماضيين بنوع من التواصل التاريخي، كما سيسمي لاحقا بول ريكور، فهو لذلك يقوم بإحياء مادة ويبعث فيها الحياة فالمؤرخ الذي "" يحيا الماضي في ذهنه _ إذا أراد أن يكون مؤرخا حقا _ يجب أن يفهم هذا الماضي الذي يحاول إحياءه ""¹.

لقد أعاد دالتاي بهذه الكيفية لمفهوم المعاش le vécu كمفهوم مركزي قاعدة لأن يصبح ربطا أو وصلا للعلوم.

ففي داخل هذه التجربة الداخلية للذات مع ذاتها، يمكننا أن نقف على البدايات الأولى لاستدراج التأويل، أو نقل التفسير لمستوى التأويل في دراسة التجربة الحقيقية للماضي كتجربة حية. لأن الدتاي كشف بهذه الكيفية بعدا جديدا للتأويل وهو أن "" التاريخ وحده يؤكد للإنسان من جهة ككائن تاريخي، ومن جهة ثانية من خلال التفسير تاريخ الإنسان يصبح حرا ""²، هكذا أعاد دالتاي Dilthey السؤال القديم لسقراط أعرف نفسك بنفسك إلي حيز الدراسة.

لقد برهن دالتاي Dilthey، ومن سعيه لوضع المعرفة التاريخية في مستوى العلوم الروحية عن أن الحرية والتفكير مرتبطان ببعضهما ببعض هذا ما دفعه للتأكيد على أن أعمال البشر لا تظهر معناه إلا إذا اعتبرناها بناءا نهائيا للإبداع حر "" وهذا الإبداع الحر لا يتأتى إلا من خلال المفهوم الجديد الذي يعطيه دالتاي لمعنى التأويل كإمكانية للتفتح المنهجي والذي يتجسد في هذه العلاقة التي يريد دالتاي نفسه تحقيقها من خلال إعادة ترتيب العلوم كلها من منظور ما يمسيه هو بعلوم الروح .

ولذا يبدو بأن دالتاي وضع التاريخ في وسط محور العملية المعرفية الداخلية للإنسان أولا من حيث هي إستبطان وثانيا من حيث هي وقوف على الأخبار والأحداث. وعليه فإن مشروعه يتلخص في "" أتعلم و أفهم بالتاريخ أكثر مما أعلم للتاريخ أين يتلخص، أو كيفية تطبيق الأطر القبلية المنتجة من قبل فلسفة عليه ""¹.

تعرف مثل هذه العملية في فلسفة التاريخ النقدية بالاتجاه التأويلي للتاريخ، والذي كانت المدرسة الألمانية بالأسماء التي سبق ذكرها مسرحا لها.

فلقد انتهت هذه المدرسة لموضوع التاريخ، ولمنهجية تفسير التاريخ، دون الخوض في اللغة التاريخية، أي في تحليل التراكيب المنطقية للغة كما هو الحال مثلا مع المدرسة الوضعية المنطقية مع كارناب وفجنشاتين.

يبقى أن نشير، على أن دالتاي كما يؤكد على ذلك غادمير أنه أول من وظف مفهوم المعاش والذي ستستعين به الفينيومولوجيا، لقد كان دالتاي يقول غادمير: " الأول الذي أعطى توظيف مفهومي للمصطلح والذي أصبح (...) ولذا بديهيا أن كثير من اللغات الأوروبية أخذته دون ترجمته ""⁽²⁾، وهي من النقاط الأساسية التي تشد هوسرل لفلسفة دالتاي خاصة بعدما يتوجه هوسرل نفسه لدراسة البعد الثقافي والتاريخي لأوروبا أو ما يسمى بالوعي الأوروبي.

تضم الكتابة التاريخية المعاصرة في فرنسا مجموعة من الأسماء غالبا ما تجتمع تحت ما يعرف عندنا بمدرسة الحوليات الفرنسية وهذه الأسماء هي: مارك بلوخ، ولوسيان لوفيفر le fébvre و فراندو بروديل Braudel F.

رواد هذه المدرسة هما كل من مارك بلوخ ولوفيفر، وبذلك كان لهما السبق الأول في أن تعرف عادة هذه المدرسة باسميهما، ولكن بروديل استطاع بإعماله وتجديده داخل هذه المدرسة نفسها أن يحتل مكانة مرموقة. فلقد دفع بالدراسة التاريخية للبحث في مواضيع جديدة لم تكن مطروقة.

لقد كان لهذه المدرسة على التقريب ميزتين : الميزة الأولى هي الشروع في بناء منهجية جديدة لدراسة التاريخ تستوحي مما وصلت إليه العلوم الجديدة، أي ما يعرف بالمقاربة العلمية لموضوع التاريخ. والميزة الثانية هي الموقف المضاد لكل مقاربة فلسفية للتاريخ، خاصة مع المؤسسين الأوائل مارك بلوخ Bloch ولوسيان لوفيفر le fébvre لأن بروديل ومن خلال مفهوم البنية والزمن دفع بالدراسة التاريخية لإمكانية المقاربة الفلسفية.

لذلك يصفهم فرنسوا دوس Dosse بأنه لديهم الحساسية المفرطة لكل ما هو فلسفي des philosophes، ولذا نجد لديهم رفض لكل "" منهجية مجردة ذات طابع ألماني ""¹ لأن لا علاقة لفكرة تاريخية إلا من التاريخ نفسه، لذا يؤكد لوفيفر le fébvre على هذا الموقف المعارض لكل فلسفة للتاريخ أو للفلسفة الألمانية للتاريخ.

هذا الموقف لا يوجد فقط لدى لوفيفر، وإنما نجد كذلك لدى مارك بلوخ حينما يؤكد بأنه "" لا يمكن أبدا لظاهرة تاريخية أن تفسر خارج زمانيتها، الأمر هذا ينطبق على كل مراحل التطور التي نحيها مثل الآخرين ""².

مما يعني ان مدرسة الحوليات أنبنت أساسا على التخلص من الأطروحة الألمانية أو الأطروحات الألمانية حول التاريخ.

لذا نجد أن كل من لوخ Bloch ولوفيفر le fébvre ابدءا عملهما بتأسيس مجلة التاريخي التي حملت اسم الحوليات les

. Annales

يشكل كتاب بلوخ Bloch le métier de l'historien ou apologie de l'historien مجموع المقالات التي كان يقوم بنشرها أو بكتابتها بلوخ حيث جمعت في الكتاب المذكور لتكون "" تنويعا نظريا لمنهج جديد في التاريخ مارسه (بلوخ) من خلال المجتمع الأوروبي في العصر الوسيط ""³.

وفي جانب آخر يعد كتاب لوفيفر معارك من أجل التاريخ تنمة للمهمة نفسها مع كتب كل من جاك لوغوف Le Goff.او لوروا لاديوري Le Roy Ladurie إمتدادا طبيعيا لتوجهات نفس المدرسة.

توحي لنا على سبيل المثال كتب لوغوف ""الذاكرة والتاريخ""، و""المثقفون في القرون الوسطى"" و""الحضارة الغربية في القرون الوسطى"" و""من أجل قرون وسطى أخرى"" بصياغة أنموذج جديد في الخطاب التاريخي الفرنسي نابع من اهتمامات الجديدة.

ولقد تعدى هذا المستوى من الكتابة لجيل من المفكرين والمؤرخين الفرنسيين الجدد يمكن أن نذكر منهم ميشال دي سارتو M.Certeau و جاك لوغو J.LeGoff و بيار نورا P.Nora و ريمون ارون R.Aron و هنري مارو H.Marou و بول فايان P.Veyne والمعروف أساسا بعنوان كيف نكتب التاريخ comment on écrit l'histoire مقابل إهتمام فلسفي محض كما هو الحال مع سارتر في نقد العقل الجدلي و ميشال فوكو في تاريخ الجنون و ليفي سترواس في الفكر المتوحش.

ما من أحد يستطيع أن يفند القول بأن خطاب المدرسة الفرنسية في بدايته أي في بداية التفكير حول المسألة التاريخية كان "" خطاب قطيعة مع التاريخ التقليدي بهذه الكيفية يفتح ويشكل ثورة في الأسطوغرافيا، وأن أحد هذه التجديدات الأساسية تمثلت في قطع الصلة مع الفهم الماضي للخطاب التاريخي ""⁽¹⁾. ونعني بالماضي هنا مسألتين، أي أعمال كل من لأنجلو وسيبنبوس من جهة وأعمال الفلاسفة الألمان من جهة ثانية.

مما ترك المدرسة أي مدرسة الحوليات تنفتح على مقاربات جديدة من حيث المواضيع ومن حيث المناهج لذلك سرعان ما نجد أنفسنا أمام سلسلة من الدراسات الجديدة كما هو الحال مثلا مع ما يسمى عنده بالتاريخ المشكل l'histoire – problème بمعنى أن دور المؤرخ تحول، أو يجب أن يتحول من باحث في الوثائق ومسجل للأحداث، إلى سائل ومجيب، أي أن يتساءل المؤرخ عن الأحداث التي وقعت وعن الكيفية التي تم بها تسجيل هذه الوقائع نفسها ومدى صدقها وكيفية التحقق من ذلك، لذلك نجد أنهم يؤكدون على أن المؤرخ "" لا يجب أن يكتفي فقط بالكتابة تحت وقع الوثائق بل يجب أن يطرح أسئلة ويضعها في إشكالية على العكس من التاريخ السرد الذي وضعه لأنجلو وسينيبوس ""²

إن التاريخ المشكل l'histoire – problème هو ما تجلى في الحكمة الشهيرة للوفيفر le fébvre القائلة "" معالجة حدث هو بناء "" Elaborer un fait, c'est construire.

كما استحدث تجربة جديدة عرفت بالتاريخ المقارن حيث أشاد بل نادى مارك بلوخ سنة 1928 بأوسلو بضرورة تماثل البحث التاريخي مع ما يحدث في علم الاجتماع مما دفعه لمقارنة تاريخ أوروبا القديم بالمجتمعات الأوروبية الحديثة أو تلك الموجودة في العصور الوسطى مما فتح له آفاق جديدة.

وتطعم البحث التاريخي بعلم النفس متأثرا بأبحاث أعمال بلوندال Ch. Blondel واستحدث ما أصبح يعرف بسيكوتاريخ Psychohistoire كما تطعم البحث التاريخي داخل الحوليات بالأبحاث السوسيولوجية لدوركايم.

لذا سرعان ما نلاحظ بأن أعمال لوفيفر بدأ أفقها يتحدد بعلم النفس، حيث أن "" النقطة المركزية في بحثه توجد في علم النفس التاريخ لأجل تحقيق استبطان l'introspection لفضاء فكري ونفسي، يأخذ أكثر فأكثر الفرد كمجال للتحليل ""¹ على خلاف بلوخ Bloch الذي أراد الاستفادة من دروكليم بتطعيم "" أكثر مما هو من علم النفس لكي يقتحم تاريخ الأفكار، ولذا فإن خطته تتقدم نحو البنيوية وتعلن طرائق التاريخ الأنثروبولوجي ""²

تحولت المجلة بعد الحرب العالمي الثانية من Annales إلى حوليات الاقتصاد والمجتمع والحضارات : Annales économies , sociétés et civilisations. لتأخذ بعدا و مساحة أكثر مما كانت عليه، حيث يغدو التاريخ في هذه اللحظة مزيج بين الديمغرافيا والاقتصاد ومجال لدراسة الأزمت خاصة بعد الضغط الذي سجلته العلوم الاجتماعية على التاريخ لأن ""العلوم الاجتماعية و في تقدمها بداءت تستبعد أكثر فأكثر سيطرة هذه التخصصات أي أن علم الاجتماع بداء يتحرر من الفلسفة والتاريخ أراد أن ينفلت من هذه القبضة ويظهر كعلم مركزي وسط العلوم الاجتماعية، ولهذا كان رد العلوم الاجتماعية أكثر

راديكالية من رد F. Simand أو Durkheim وكأننا نحضر لميلاد مدرسة تصبح مهيمنة على العلوم الاجتماعية بما فيها الآداب، إنها البنيوية، هذه الأخيرة تعرف بمعاداتها للتاريخانية وتجد مجالها في الأبحاث الأنثروبولوجية لكلود ليفي سترواس C. Levi Strauss¹، وفي خضم هذا التوتر كذلك اشتهرت أبحاث دي سوسير حول اللغة.

وسط هذا التوجه الجديد حاول بروديل Braudel أن يدفع التاريخ الحولي نحو توجهات جديدة تستفيد من الجو العام للعلوم الاجتماعية ليحتفظ ببعد الزمن والفضاء التاريخي ويحاول من خلالها أن يعطي تاريخا شاملا يماثل به الأنثروبولوجيا. إن التاريخ عند بروديل Braudel "يريد أن يكون قبل كل شيء تركيب مثله مثل الأنثروبولوجيا، ولكن بتفوق لبعدي الزمن والمكان، فهو لذلك يأخذ من تراث الحوليين الأوائل حيث أن الزمن يهب للتاريخ الدور المحوري²" فالزمن والمدة والتاريخ يقفان في وجه بل يجب أن يقفان في وجه كل علوم الإنسان³.

خلف مفهوم التاريخ الكلي للبروديل يوجد تصور لما يسمى بالتاريخ بالبلازما، كما يصفها مارك بلوخ Bloch فالكلمة الأساسية للخطاب البرودلي هو أن الكل يؤثر في الكل أو العكس، كما إهتم جاك لوغوف Le Goff. أو لوروا لاديوري Le Roy Ladurie بالتاريخ الكلي وجعلها مجالاً لما يسمى بالأنثروبولوجية التاريخية من خلال اهتمامه بدراسة تاريخ الأفكار.

حيث يتوزع كتاب لادوري "إقليم المؤرخ" le territoire de l'historien على ثلاث أقسام أساسية يحدد من خلالها المجال الجديد للمؤرخ أخذاً في الحسبان، كما يؤكد ما يجري في أمريكا اعتباراً بما يجري في أمريكا من أبحاث حول التاريخ الكمي l'histoire quantitative والتاريخ المناخ l'histoire climat.

لم يكتف لادوري Ladurie ببسط مساحة التاريخ على هذا المستوى، بل تعداه إلى مواضيع لم تكن من المقاربة التاريخية، ونعني بذلك على سبيل المثال تاريخ الموت كعمل من أعمال المؤرخ، وذلك لإعجابه بدراسة بيار شانوا وميشال فوفال، وكيف كانت تقام محافل دفن الميت، وكيف تراجعت وفق تنميط طبقي، فبفضل فوفال علم الاجتماع الديني – الخاص بالموت – انتقل من النمط القديم مستوى العد والحساب .. حساب الذين حضروا مراسيم الدفن و انتهت إلى تاريخ فعلي تسلسلي وأكد للعقلية الدينية⁴

بينما نجد لوغوف Le Goff قد بقي في مستوى الطرح الأول للمدرسة الفرنسية مركزاً على نوع معين من التاريخ ونعني به تاريخ الذهنيات histoire des mentalités لا معنى histoire des idées حيث يقول Le Goff في هذا الصدد "من أين يأتي تاريخ الذهنيات histoire des mentalités ؟ ... الفرنسيون لا يستخلصون mentalités من mental ... الذهنية mentalité هي بنت الفلسفة الإنجليزية للقرن 17 عشر والتي تعني التمازج الكلي لما هو نفسي والطريقة الخاصة للتفكير والإحساس (لشعب ومجموعة خاصة أو أناس، إلخ..). حيث بقي المصطلح في الإنجليزية لصيق اللغة التقنية، بينما في الفرنسية أصبح يدخل ضمن المعاملة اليومية⁵

كما كان للتحليلات الاستيمولوجية دوره في رسم معالم تاريخ جديد فالتحول نحو المقاربة الاستيمولوجية للتاريخ في الخطاب التاريخي الفرنسي على الخصوص نجدها في بول فايين P. Veyne والمعروف أساساً تحت عنوان كيف نكتب التاريخ comment on écrit l'histoire حيث يقوم من خلاله بدراسة نقدية للمعرفة التاريخية بداية من سؤال أساسي حول تصورها للتاريخ.

فحول سؤال ماهو التاريخ؟ يجيبنا فايين "الجواب لم يتغير منذ أكثر من ألفين ومائتين سنة حيث أن أتباع أرسطو والمؤرخون مازالوا يسردون الأحداث التي يكون الإنسان بطلها، التاريخ هو رواية حقيقية⁶ يقوم هذا الجواب على تحديد مفاهيمي لتصور التاريخ في مقابل الرواية من حيث أن هذه الأخيرة تقوم على ما يسمى بالسرد، ولعل مرتبط الإشكال يقوم هنا على تصورنا للسرد من حيث أنه مرتبط بعملية وضع الأحداث في قالب تسلسلي، ولكن حتى وإن كان التاريخ "هو سرد للأحداث، كل ما تبقي ينجر على ذلك لأنه من الآن سيكون ضمن هذا السرد ولا يعاش مرة ثانية ليس كالرواية. المعاش بعدما تعاد صياغته بين يدي المؤرخ لا يبقى مثلما كان، إنه سرد مما يسمح بحذف بعض المسائل الخاطئة⁷.

إن هذه التفرقة الأساسية بين التاريخ والرواية على أساس الحدث والحبكة من حيث أنهما يخضعان للسرد كقاسم مشترك تنبني عليه العمليتين، والتي تتلخص في أنه P. Veyne لا يمكن أن يماثل التاريخ الرواية رغم وجود هذا القاسم، ولذا فإن "المؤرخ يهتم بالأحداث لسبب وحيد وهو أنها حدثت وليست فرصة للكشف عن القوانين⁸.

إن شغف المدرسة الفرنسية في بدايتها و نقصد لانجلو و سينيبوس و حتى الوضعيين في البحث وراء الأحداث التاريخية عن طبيعية جديدة للقوانين يماثلون بها نظيرتها في العلوم الطبيعة لم يكن سوى علامة على عدم فهم جيد لخصوصية فهمنا للتاريخ. إن مثل هذه المعالم لا يجب أن تبعدنا عن المقاربة الفلسفية لموضوع التاريخ الجديد أو المقاربة الفلسفية المعاصرة للمسألة التاريخ.

المصادر والمراجع :

نعتد هنا التسمية التي تعطيها سيليفيا ميزوير Sylvie Mesure لتحقيقها وترجمتها لنصوص دالتاي إلى اللغة الفرنسية وهو المشروع الذي يضم تقريبا سبعة أجزاء والذي أحاول هنا أن أعتمد فيه على الجزء الأول الذي يحمل عنوان مقدمة في علوم الروح.

¹ Dilthey, W, aperçu sur l'ensemble des sciences particulières de l'esprit in critique de la raison historique Oeuvres 1, Ed cerf 1992 P174

² ريمون أرون، فلسفة التاريخ النقدية، بحث في النظرية الألمانية للتاريخ، تر. حافظ الجمالي، ط1، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1999 ص 15

¹ Brogowski. L, Dilthey conscience et histoire, Ed, P.U.F 1997 P, 19.

² Dilthey, Ibid P 189

¹ Brogowski. L, Dilthey conscience et histoire, Ed, P.U.F 1997 P, 17

² Brogowski, Ibid, P, 17.

¹ Ibid p 123

² Gadamer, H, G, Vérité et Méthode, Ed, le seuil 1996 P 78

¹ Dosse, F, L'histoire en miettes, Ed, la découverte, 1987, P, 54.

² Bloch, M, Apologie pour l'historien, Ed, A, Colin, 1961, P, 9.

³ كوثراني، وجيه "" الذاكرة و التاريخ " ط 1 دار الطليعة بيروت لبنان 2000 ص 164

¹ Dosse. Ibid, P 60

² Ibid P 70

¹ Dosse Ibid P 78

² Ibid P 79

¹ Ibid P 102

² Dosse Ibid P 107

¹ Ibid P 403

² le Goff. J Faire de l'histoire V3 ed Gallimard 1974 collection Folio 1986 P 114

¹ Veyne. P Comment on écrit l'histoire Ed le seuil 1978 P 10

² Ibid P 14

¹ Ibid P 125